المحاضرة الأولى: المنهج والميتودولوجيا

إن عملية التزاوج والترابط بين العلوم والمناهج حتمية فرضتها السرعة الفائقة التي شهدتها العلوم، فلا علم بدون منهج، ولما كان الأمر كذلك أصبح من اللازم مسايرة العلوم للمناهج للنأي بنتائج هذه العلوم عم الزلل المعرفي والتيه العلمي، وكذلك فإن التطور والرقي الذي بلغه الإنسان في مختلف الميادين لم يكن لولا المناهج العلمية الصحيحة، ومن هنا نتساءل: ما المنهج؟ وما الميتودولوجيا؟.

1-معاني المنهج:

فالمنهج من حيث الاشتقاق هو ترجمة للكلمة الفرنسيةméthode ونظائرها في اللغات الأوروبية الأخرى. وكلها تعود في النهاية إلى الكلمة اليونانية méthodos، وهي كلمة نرى أفلاطون يستعملها بمعنى البحث أو النظر أو المعرفة، كما نجدها كذلك عند أرسطو أحيانا كثيرة بمعنى "بحث"[1]. والمعنى الاشتقاقي الأصلي لها يدل على الطريق أو المنهج المؤدي إلى الغرض المطلوب، خلال المصاعب والعقبات.

ويعرف لالاند المنهج على أنه " طريق نصل من خلاله، وبه، إلى نتيجة معينة، حتى وإن كانت هذه الطريق لم تتحدد من قبل تحديدا إراديا ومترويا. "هنا يطلق اسم الترتيب على فعل الفكر الذي يكون له، حول موضوع واحد...عدّة أحكام، وعدّة أدلّة، فيرتبها على أفضل وجه لجعل الموضوع معروفا. وهذا ما يسمى أيضا منهجا"[2]. يعرفه كذلك على أنه "برنامج ينظم مسبقا سلسلة عمليات ينبغي إكمالها، على بعض الأخطاء الواجب تجنبها، بغية بلوغ

---

[1] عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1977، ص3.

[2] أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليلو إشراف أحمد عويدات، المجلد الأول A-G منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 2001، ص800.

نتيجة معينة، وبنحو خاص هو طريقة تقنية للحساب أو التجريب"[3]. وبهذا يتفق التعريف اللغوي مع التعريف الاصطلاحي إلى حد كبير.

بالرغم من التاريخ القديم للفظ منهج إلا أن معناه الاصطلاحي لم يتحدد ولم يأخذ معناه الحالي(باعتباره تلك القواعد العامة المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم) إلا ابتداء من عصر النهضة الأوروبية. لقد اعتنوا المناطقة بمسألة المنهج، كجزء من أجزاء المنطق، إلا أنه في هذه الفترة لا يزال غامض، أما المحاولة الواضحة في ذلك العصر، "عصر النهضة" فهي تلك التي قام بها راموس Ramus (1515–1572) إلا أنه لم يحدد منهج دقيق للعلوم، بل عنى خصوصا بالمنهج في البلاغة والأدب[4]، ولم يهتم بالملاحظة والتجربة إلى درجة كافية، لكنه استطاع لفت النظر إلى أهمية المنهج.

إن المفهوم الحديث للمنهج لايتعدى العصر الذي عاش فيه فرانسيس بيكون في القرنين السادس عشر والسابع عشر، إذ تمت الخطوة الحاسمة في سبيل تكوين المنهج، وبالفعل تجسد هذا الوعي بضرورة المنهج في الفلسفة الحديثة من خلال كتاب " الأورغانون الجديد" (1620). إذ صاغ بيكون قواعد المنهج التجريبي بكل وضوح، وإلى جانب ديكارت الذي ساهم بدور فعال في تطوير المنهج العلمي المؤدي إلى حسن السير بالعقل، والبحث عن الحقيقة في العلوم من خلال كتابه" مقال في المنهج" (1637)، وجاء نتيجة نقده اللاذع الذي وجهه لأساليب البحث التي سبقت العصر الذي عاش فيه خصوصا القياس الأرسطي[5].

---

[3] أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مرجع سابق، ص803.

[4] عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، مرجع سابق ص4.

[5] صلاح الدين شروخ، منهجية البحث القانوني، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص 22.

وفيما يخص المناهج الفلسفية هي "من سلكه الفلاسفة من طرائق في الاستدلال على نظرياتهم ومحاولة الاقناع بها، أو ما عدوه طرق موصلة إلى اكتشاف الحقيقة"[6] أو ما وضعوه من نظريات. ويجيئ الحديث عن المنهج في الفلسفة بصيغة الجمع، إذ لا يوجد منهاج فلسفي واحد، بل تعددت المناهج الفلسفية بتعدد أنساقها، ويعتبر كارل بوبر أنه يوجد من المناهج التي يمكن يستخدمها الفيلسوف بقدر ما يريد، فالمهم أن تكون لديه مشكلة تستحق النظر. كما يذكر باسكال المنهاج على صيغة الجمع " فهناك من المناهج، أي من الطرائق التي ينبغي أن نبتدعها بقدر ما يوجد من مشاكل نسعى لحلها"[7]. إن هذا التعدد في المناهج تقتضيه طبيعة الفلسفة، فلا ينبغي أن يسيئ إلى المعرفة الفلسفية، ولا إلى وحدة العلم، لأن هذا الأخير بتغييره لمناهجه يصير منهجيا أكثر.

2-الميتودولوجيا:

الميتودولوجيا مصطلح مكون من كلمتين يونانيتين "ميتودو" (Méthodo) وتعني العلم، وتعني الطريقة، ولوغوس (Logos)، وعليه فالميتودولوجيا Méthodologie تعني علم المناهج، والمقصود هنا، مناهج العلوم[8]. ومن جملة ما يعنيه هذا العلم هو دراسة المناهج البحثية المستخدمة في كل فروع العلوم المختلفة، ويعرفه أندريه لالاند: " فرع من المنطق، موضوعه الدرس اللاحق للمناهج والطرق، وبنحو أخص، عادة، درس المناهج العلمية"[9].

---

[6] الطاهر وعزيز، المناهج الفلسفية، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990، ص 7.

[7] المرجع نفسه، ص 32.

[8] محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم، العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 1994، ص23.

[9] أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مرجع سابق، ص804.

كما أن الميتودولوجيا – حسب محمد عابد الجابري– تقتصر في الغالب على دراسة المناهج العلمية دراسة وصفية تحليلية لبيان مراحل عملية الكشف العلمي، وطبيعة العلاقة التي تقوم بين الفكر والواقع"[10].

إن أول من استعمل كلمة "علم المناهج" هو الفيلسوف الالماني " ايمانويل كانط" وذلك عندما قسم المنطق إلى قسمين:

أولا، مذهب المبادئ وهو الذي يبحث في الشروط والطرق الصحيحة للحصول على المعرفة.

ثانيا، علم المناهج الذي يهتم بتحديد الشكل العام لكل علم وبتحديد الطريقة التي يتشكل بها أي علم من العلوم[11]. فعلم المناهج هو الذي يبحث في مناهج البحث العلمي والطرق العلمية التي يكتشفها ويستخدمها العلماء والباحثون من اجل الوصول إلى الحقيقة.

إلا أنها استقلت بنفسها استقلالا تاما، لتشكل علما خاصا هو " علم المناهج" الذي يختلف كلية عن المنطق الصوري. وتقوم المنهجية بدراسة مختلف المناهج العلمية بناء على قاعدتين أساسيتين: الأولى أأن لكل علم منهجه الخاص، والثانية أن عمل الميتودولوجيا "لاحقة للعمل العلمي وليست سابقة عليه"[12] بمعنى أن المتخصص في علم المناهج "لا يرسم للباحث الطريق التي يجب أن يسلكها، بل إنه بالعكس من ذلك، يتعقبه ويلاحق خطواته الفكرية والعملية: يصفها ويحللها، ويصنفها، وقد يناقش وينتقد، كل ذلك من أجل صياغتها صياغة نظرية منطقية قد تفيد العلم في بحثه، وتجعله أكثر وعيا لطبيعة عمله"[13]

---

[10] محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم، العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، مرجع سابق، ص ص 22–23.

[11] ماثيو جيدير، منهجية البحث العلمي، ترجمة ملكة أبيض، 2015، ص77.

[12] محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم، العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، مرجع سابق، ص 22.

[13] المرجع نفسه، ص23.

وفي تقسيم العلماء والفلاسفة للميتودولوجيا، فإنها تتناول بالبحث المناهج العامة والمناهج الخاصة " ويضم علم المناهج العامة دراسة القواعد العامة في أي بحث كقواعد الاستنباط والاستقراء، وهما جزء مما يتناوله علم المنطق، أما المناهج الخاصة فهي دراسة لمنهج البحث في كل من تلك العلوم"[14]، إذ يختلف منهج علم ما باختلاف موضوعه.

فالمناهج عند كلود برنارد "لا يمكن أن تدرس نظريا كقواعد عامة يفرض على العالم بعد أن يسير وفقا له، إنها تتكون في داخل المعمل، الذي هو معبد العلم الحقيقي، وإبان الاتصال المباشر بالوقائع والتجارب العملية. ذلك أن هذه العمليات والمناهج العلمية لا تتعلم إلا في المعامل حيث يكون القائم بالتجريب في اشتباك مع مشاكل الطبيعة..."[15].

من هنا ظهرت مشكلة تتعلق بتكوين "علم المناهج" ذاته، وذلك بالنسبة لنصيب العالم المتخصص ونصيب الفيلسوف من هذا التكوين؟ وهل الفيلسوف أم العالم هو الذي يضع القواعد للمناهج العلمية؟. لقد رأى كلود برنارد أن العلم يجب ألا يسبق في ذهن العالم بمذهب فلسفي معين يسير وفقا له في أبحاثه... ولكن ليس معنى ذلك، أن تكوين المناهج يجب أن يكون من شأن العالم وحده... ذلك لأن العالم المتخصص في مجال محدود، لا يستطيع عادة أن يتبين الروابط الجامعة بين ميادين العلوم والمعارف المختلفة... ولابدّ إذن من أن يحاول شخص آخر ذو نظرة أوسع استقراء المناهج التي اتبعها العلماء في ميادينهم المختلفة، لاستخلاص النماذج العامة للمناهج العلمية، وأن يصل بذلك إلى شيء من التعميم، وهذا الشخص هو المنطقي.

---

[14] محمود زيدان، مناهج البحث الفلسفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1977، ص 22.

[15] عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، مرجع سابق، ص ص 6-7.

المناهج العلمية إذن تتعدل وتتغير باستمرار على يد العلماء المتخصصين، وما على الفيلسوف في المناهج إلا أن يتابع مناهج هؤلاء العلماء المتخصصين، وأن يحاول تنسيقها في نماذج وتوجيهات عامة توضع أمام العلماء لقبولها أو لرفضها[16].

فهي – المناهج"– تختلف باختلاف العلوم، لأن روح هذا الالم الفزيائي غير روح ذلك العالم الكميائي، وليس ثمة بالتالي منهج واحد للبحث في العلوم أو في طائفة منها بأكملها. ونتيجة ذلك، أن تكوين المناهج ليست مهمة الفيلسوف، لأنه لا يستطيع إلا أن يقدم منهجا عاما، كما أنه ليس له اتصال مباشر بالعلم في معبده الحقيقي وهو المعمل. وما على الفيلسوف الباحث في المناهج إلا أن يتابع العلماء المتخصصين، وذلك أن يقدم توجيهات عامة لهم. فمهمة الفيلسوف الباحث في المناهج أن يكشف عن الطرائق العامة التي يسلكها العقل الإنساني في بحثه عن الحقيقة بتأمله في المناهج التي سار عليها العقل.

[16] أحمد بدر، البحث العلمي ومناهجه، وكالة المطبوعات، الكويت،1973، ص 35.